

فى البيت

- جاء رسول من آل جريجورىف يطلب كتابا ، ولكنى قلت إنكم لستم فى المنزل . وحمل ساعى البريد جرائد ورسالتين . وبالمناسبة يا يفجينى بتروفيتش أرجو أن تولوا اهتمامكم إلى سيرىوجا . فقد لاحظت اليوم ، وأول أمس ، أنه يدخن . وعندما بدأت أوبخه سد أذنيه كالعادة وأخذ يغنى بصوت عال لكيلا يسمع ما أقول .

كان يفجينى بتروفيتش بيكوفسكى وكيل نيابة الناحية ، قد عاد لتوه من جلسة المحكمة وفرغ من نزع قفازه فى غرفة مكتبه ، فنظر إلى المربية التى كانت تبلغه هذا التقرير وضحك .

وقال وهو يهز كتفيه :

- سيرىوجا يدخن . . . إننى أتخيل منظر هذا الصغير والسيجارة فى فمه ! ولكن كم عمره ؟

- فى السابعة . قد يبدو لكم هذا غير جدى ، ولكن التدخين فى سنه عادة سيئة ومضرة ، والعادات السيئة ينبغى القضاء عليها فى بدايتها .

- أنت على حق تماما . ومن أين يحصل على التبغ ؟

- من درج مكتبكم .

- حقا ؟ فى هذه الحالة أرسله إلى .

وبعد انصراف المربية جلس بيكوفسكى فى المقعد أمام مكتبه ، وأغمض

عينه، وأخذ يفكر. ولسبب ما رسم فى خياله صورة لابنه سيريوجا وفى فمه سيجارة ضخمة طويلة، وتلفه سحب دخان السجائر، فجعلته هذه الصورة الكاريكاتيرية يبتسم. وفى الوقت نفسه أثار وجه المربية الجاد المهموم فى نفسه ذكريات الماضى البعيد، المنسى تقريبا، عندما كان التدخين فى المدرسة أو فى غرفة الأطفال يثير فى نفوس المدرسين والآباء رعبا غريبا، غير مفهرم تقريبا. كان ذلك رعبا بالفعل. وكانوا يضربون الأولاد بقسوة، ويفصلونهم من المدرسة، ويفسدون عليهم مستقبلهم، رغم أن أحدا من المدرسين أو الآباء لم يكن يعلم بالضبط ما هو الضرر من التدخين وما هى الجريمة فى ذلك. وحتى أذكى الأشخاص لم يترددوا فى مكافحة الرذيلة التى لم يكونوا يفهمونها. وتذكر يفجيني بتروفيتش ناظر مدرسته، ذلك العجوز المثقف جدا والطيب القلب الذى كان يملكه الرعب إلى درجة الشحوب عندما يضبط تلميذا يدخن، فيجمع على الفور مجلس المربين ويحكم على المذنب بالفصل. يبدو أن تلك هى طبيعة قانون الحياة المشتركة: فكلما ازداد الشر غموضا أصبحت مقاومته أكثر ضراوة وفضاظة.

وتذكر وكيل النيابة اثنين أو ثلاثة من المفصولين، وتابع مجرى حياتهم بعد ذلك، فلم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير بأن العقاب كثيرا ما يعود بشر أكثر من الجريمة نفسها. فالجسم الحى يملك القدرة على التكيف السريع والتعود والتأقلم مع أى وسط، وإلا لكان على الإنسان أن يشعر فى كل لحظة بمدى انعدام الحكمة فى أساس نشاطه الحكيم، وبضالة الحقيقة المستوعبة والثقة، حتى فى تلك الأنشطة المسئولة وذات الآثار الخطيرة كالنشاط التربوى، والقانونى والأدبى..

أخذت مثل هذه الأفكار الخفية الغائمة، والتى لا تراود إلا الذهن المتعب ساعة الراحة، تدور فى رأس يفجيني بتروفيتش. كانت تظهر من حيث لا يعرف ونسب لا يدره، وتبقى فى رأسه قليلا، فتبدو وكأنها

تزحف فوق المخ دون أن تغوص عميقا فيه . وبالنسبة للأشخاص الذين يتوجب عليهم أن يفكروا بطريقة رسمية ، وفي اتجاه واحد لساعات طويلة وربما لأيام ، تمثل مثل هذه الأفكار المنزلية الحرة نوعا من الراحة والاستجمام اللذيذ .

كانت الساعة حوالى التاسعة مساء . وفوق غرفة المكتب ، فى الطابق الثانى ، وراء السقف ، كان شخص ما يسير من ركن لركن ، وأعلى من ذلك ، فى الطابق الثالث تردد عزف ثنائى على البيانو . وأضفت خطوات ذلك الشخص الذى كان ، حسبما بدا من مشيته العصبية ، يعذبه التفكير ، أو يعانى من ألم فى أسنانه ، والأنغام الرتيبة ، أضفت على هدوء المساء جوا ناعسا يبعث على الاستسلام للتفكير الكسول . وعبر غرفتين تنهى حديث المربية مع سيريوجا فى غرفة الأطفال .

وأخذ الصبى يغنى :

- با . . با وصل ! با . . با وصل . . ل ! با . . . با . . با !

وصرخت المربية بصوت رفيع كطائر مذعور :
(١) votre pere vous appelle, allez vite! إنتى أخاطبك !

وقال يفجينى بتروفتش لنفسه : « ولكن ماذا أقول له ؟ »

وقبل أن يهتدى إلى شىء دخل غرفة المكتب ابنه سيريوجا ، الصبى ذو الأعوام السبعة . كان شخصا لا يمكن الحكم على جنسه سوى من ملبسه . . قليل الحجم ، شاحب الوجه ، هشاً . . كان ذابل الجسم مثل نبات دفيئة ، وبدا كل شىء فيه رقيقا وناعما جدا : حركاته ، وشعره المجعد الخصلات ، ونظرتة ، وسترته المخملية .

وقال بصوت ناعم وهو يعتلى ركبتى أبيه ويقبله فى عنقه بسرعة :

(١) والدك يدعوك ، هيا بسرعة (بالفرنسية فى الأصل) (المعرب) .

- مرحبا بابا! هل دعوتنى؟

فأجاب وكيل النيابة وهو ينحيه عنه :

- اسمح لى ، اسمح لى يا سيرجى يفجينيتش^(١) . قبل القبلات ينبغى علينا أن نتحدث ، ونتحدث بجدية . . إننى غاضب منك ولم أعد أحبك . نعم ، فلتعلم يا أخى أننى لا أحبك ، وأنتك لست ابنى . . نعم .

تطلع سيريوجا إلى أبيه باهتمام ، ثم حول نظره إلى الطاولة وهز كتفيه . ثم سأل بدهشة وعيناه تطرفان :

- وماذا فعلت لك؟ أنا لم أدخل مكتبك اليوم ولا مرة ، ولم ألس شيئا .

- اشتكت لى نتاليا سيميونوفنا الآن من أنك تدخن . . هل هذا صحيح؟ هل تدخن؟

- نعم ، دخنت مرة . . هذا صحيح!

فقال وكيل النيابة عابسا ليخفى ابتسامته :

- انظر ، ها أنت ذا فوق ذلك تكذب . لقد رأتك نتاليا سيميونوفنا تدخن مرتين . إذن فأنت قد ضبطت متلبسا بثلاثة أعمال سيئة : فأنت تدخن ، وتأخذ تبغا ليس لك من المكتب ، وتكذب . ثلاثة ذنوب!

فقال سيريوجا متذكرا بينما ابتسمت عيناه :

- آه ، نعم! هذا صحيح ، صحيح! أنا دخنت مرتين : اليوم ومن قبل .

- هل رأيت؟ إذن مرتين وليس مرة واحدة . . أنا غير راض عنك أبدا ، أبدا! كنت صبيبا طيبا من قبل ، أما الآن فأرى أنك فسدت وأصبحت سيئا .

وسوى يفجينى بتروفيتش ياقة سيريوجا وفكر :

(١) المخاطبة بالاسم الكامل واسم الأب تستخدم مع الكبار للاحترام . ويريد الآن هنا أن يضيف على حديثه مع ابنه الصغير طابع الجدية . (المعرب).

«ماذا أقول له بعد؟»

ثم استطرده يخاطبه :

- نعم، هذا أمر سييء . لم أكن أتوقع ذلك منك . فأولا ، لا يحق لك أن تأخذ تبغا ليس ملكك . من حق كل إنسان أن يستخدم فقط ما يملكه ، أما إذا استولى على ما ليس له فهو . . فهو إنسان سييء ! (وفكر يفجيني بتروفتش : «ليس هذا هو المطلوب قوله !») فمثلا نتاليا سيميونوفنا عندها صندوق ملابس . إنه صندوقها ، ولا يحق لنا ، أقصد أنا وأنت ، أن نمسه ، لأنه ليس صندوقنا . أليس كذلك؟ وأنت لديك لعب وصور . . وأنا لا أستولى عليها ، أليس كذلك؟ ربما كنت أريد أن أستولى عليها . . ولكنها ليست لى ، بل لك !

فقال سيريوجا وقد رفع حاجبيه :

- خذها إذا كنت تريد ! لا تخجل يا بابا من فضلك ، خذها ! هذا الكلب الأصفر على مكتبك هو كلبى ، ولكنى لا أقول شيئا . . فليبق على مكتبك ! فقال بيكوفسكى :

- أنت لا تفهمنى . هذا الكلب أنت أهديتنيه ، فهو الآن ملكى ، وبوسعى أن أفعل به ما أريد . ولكنى لم أعطك التبغ ! التبغ ملكى أنا ! (وفكر وكيل النيابة : «ليس هذا ما ينبغى أن أوضحه ! ليس هذا أبدا !») ولو أردت أنا أن أدخن تبغا ليس لى ، فعلى قبل كل شيء أن أستأذن . .

أخذ بيكوفسكى يشرح لابنه ما معنى الملكية ، وهو يشبك العبارة بالعبارة فى كسل ويتصنع لهجة الأطفال . وكان سيريوجا يصغى إليه باهتمام وهو يحرق فى صدره (كان يخب التحدث مع أبيه فى أوقات المساء) ، ثم اتكأ على طرف المكتب وزر عينيه القصيرتى النظر محدقا فى الأوراق والمحبرة . وطافت نظراته على المكتب ثم توقفت على زجاجة صمغ عربى .

وسأل فجأة وهو يقرب الزجاجه من عينيه :

- بابا، تم يصنع الصمغ؟

فأخذ بيكوفسكى الزجاجه منه ووضعها فى مكانها، وأكمل :

- وثانيا أنت تدخن . . وهذا شئ سئ جدا! فإذا كنت أنا أدخن فهذا لا يعنى أبدا أن التدخين مسموح به . أنا أدخن وأعرف أن ذلك ليس من الحكمة، وأويخ نفسى ولا أحبها بسبب ذلك . . (وفكر بيكوفسكى : «يا لى من مرب مكار!») . - التبغ ضار جدا بالصحة، ومن يدخن يموت مبكرا . والتدخين ضار بصفة خاصة بالصغار أمثالك . فصدرك ضعيف، وأنت لم تصبح قويا بعد، والتدخين يصيب الضعفاء بالسل وغيره من الأمراض . عمك أجناتى مثلامات بالسل . لو لم يكن يدخن فرجما عاش حتى اليوم .

تطلع سيريوجا مفكرا إلى المصباح، وتحسس الأباجورة بإصبعه وتنهذ .
وقال :

- كان عمى أجناتى يعزف جيدا على الكمان! كمانه الآن عند آل جريجوريف!

واتكأ سيريوجا ثانية على طرف المكتب واستغرق فى التفكير . وعلى وجهه الشاحب استقرار تعبیر وكأنما كان يصغى أو يتابع سير أفكاره الخاصة . وبدا فى عينيه الواسعتين اللتين لا تطرفان حزن أو شئ أشبه بالذعر . ربما كان يفكر الآن فى الموت الذى اختطف منذ زمن قريب أمه وعمه أجناتى . فالموت يحمل إلى العالم الآخر الأمهات والأعمام، بينما يبقى أولادهم وكماناتهم على الأرض . ويعيش الموتى فى السماء، فى مكان ما قرب النجوم، وينظرون من هناك إلى الأرض . ترى هل يتحملون ألم الفراق؟
وفكر يفجئنى بتروفتش : «ماذا أقول له؟ إنه لا يصغى إلى . يبدو أنه لا يعير أهمية لذنوبه ولا لحججى . كيف أقنعه؟» .

ونهض وكيل النيابة وأخذ يذرع غرفة المكتب . وأخذ يفكر :

« فى الماضى ، على أيامى ، كانت هذه المسائل تحل بمنتهى البساطة : كانوا يجلدون الصبى المتلبس بالتدخين . وكان الجبناء وضعفاء القلوب يقلعون فعلا عن التدخين . أما الأكثر شجاعة وذكاء فكانوا ، بعد العلقة ، يخبثون التبغ فى رقبة الحذاء العالى ويدخنون فى الحظيرة . وعندما يضبطون الصبى فى الحظيرة ويجلدونه ثانية ، كان يذهب إلى شاطئ النهر ليدخن . . وهكذا دواليك حتى يكبر . كانت أمى تغدق على النقود والحلوى حتى لا أذخن . أما الآن فتعتبر هذه الوسائل تافهة ولا أخلاقية . فالمربى الحديث ، وقد تسلح بالمنطق ، يحاول أن يجعل الطفل يتقبل المبادئ الخيرة لا بدافع الخوف أو الرغبة فى التميز أو طمعا فى مكافأة ، بل عن وعى » .

وبينما كان يتمشى ويفكر ، اعتلى سيريوجا الكرسي الموضوع بجوار المكتب وبدأ يرسم . وحتى لا يلوث الأوراق الرسمية ويعبث بالمحبرة وضعت على المكتب رزمة من الورق المقصوص خصيصاً له وقلم ازرق .

وقال وهو يرسم بيتا ويلعب حاجبيه :

- جرحت الطباخة اليوم أصبعها عندما كانت تخرط الكرنب . وصرخت عاليا لدرجة أننا خفنا جميعا وركضنا إلى المطبخ . أما غبية ! نصحتها نتاليا سيميونوفنا بأن تبلل أصبعها بالماء البارد ، لكنها أخذت تمصه . . كيف يمكن أن تضع فى فمها هذا الإصبع القذر؟ أليس هذا عيبا يا بابا؟

ثم روى بعد ذلك أنه أثناء الغداء أتى إلى الفناء عازف جوال ومعه فتاة كانت تغنى وترقص على أنغام الموسيقى .

وفكر وكيل النيابة : « إن لديه تيار أفكاره الخاصة ! لديه فى رأسه عالمه

الصغير الخاص، وبطريقته الخاصة يعرف ما هو المهم وغير المهم. ولا يكفى للاستحواذ على انتباهه وإدراكه أن تتصنع لهجته، وإنما ينبغى كذلك أن تعرف كيف تفكر بطريقته. كان من الممكن أن يفهمنى تماما لو أننى بالفعل كنت أسفا على التبع، لو أننى غضبت وبكيت. . . ولهذا فالأمهات لا غنى عنهن فى التربية لأنهن قادرات على الإحساس بما يحس به الأطفال، وعلى البكاء والضحك معهم. . . ولن تصل إلى شىء بالمنطق والوعظ. حسنا، فماذا أقول له؟ ماذا؟»

وبدا ليفجئنى بتروفتش غريبا ومضحكا أنه، وهو القانونى المحنك، والذى قضى نصف عمره فى التمرس بشتى أنواع المنع والإنذار والعقوبة، أصبح مرتبكا تماما ولا يعرف ماذا يقول للصبي.

وأخيرا قال:

- اسمع، أعطنى كلمة شرف بأنك لن تدخن بعد الآن.

فقال سيروجيا مغنيا، وهو يضغط بشدة على القلم وينحنى فوق الرسم:

- كد . . مة شر . . ف! كد . . م . . شر . . ف! رف . . رف . .

وسأل بيكوفسكى نفسه: «وهل هو يعرف ما معنى كلمة شرف؟ كلا، إننى مرب سىء. لو أن أحدا من المربين أو من زملائى القضاة أطل الآن فى رأسى لا اعتبرنى خرقه، بل وربما اتهمنى بالإفراط فى التحذلق. . . ولكن المشكلة أن كل هذه القضايا الخبيثة تحل فى المدرسة أو المحكمة على نحو أبسط بكثير مما فى البيت. فأنت هنا تتعامل مع مخلوقات تحبها بجنون، والحب يفرض متطلباته ويعقد المسألة. لو لم يكن هذا الصبي ابنى، لو كان تلميذى أو أحد المتهمين لما ترددت هكذا، ولما تشتت أفكارى! . . »

جلس يفجئنى بتروفتش إلى المكتب وتناول أحد رسومات سيروجيا.

كان الرسم يصور منزلا بسقف معوج ودخانا يتصاعد من المدخنة حتى طرف الورقة على شكل تعرجات حادة كالبرق . وبجوار المنزل وقف جندي يحمل بندقية بحرية على شكل رقم (4) ، وبنقطتين بدلا من العينين .

وقال وكيل النيابة :

- الإنسان لا يمكن أن يكون أعلى من المنزل . انظر . . السقف لديك يصل إلى كتف الجندي .

وتسلى سيريوجا ركبتيه وظل يتحرك طويلا ليتخذ وضعاً مريحاً .

وقال بعد أن تأمل رسمه :

- لا يا بابا ! لو رسمت الجندي صغيراً فلن تظهر عيناه .

فهل كان عليه أن يجادله؟ لقد اقتنع وكيل النيابة من واقع ملاحظاته اليومية لابنه أن لدى الأطفال ، مثلما لدى الأقوام المتوحشة ، نظرتهم الفنية الخاصة ومتطلباتهم المتميزة التي تستعصى على فهم الكبار . وربما لوراقب أحد الكبار سيريوجا بانتباه لبدا له صيباً شاذاً . فقد كان يعتبر من الممكن والمعقول أن يرسم الناس أعلى من المنازل ، ويعبر بالقلم ، إلى جانب الأشياء ، عن أحاسيسه الخاصة . فقد كان يصور مثلاً أنغام الأوركسترا على شكل بقع دخانية دائرية ، ويصور الصغير على شكل خيط لولبي . . كان الصوت في مفهومه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالشكل واللون ، فعندما يلون الحروف كان دائماً يصبغ حرف (اللام) باللون الأصفر ، وحرف (الميم) باللون الأحمر ، وحرف (الألف) باللون الأسود ، وهلم جرا .

وألقي سيريوجا بالرسم وتلملم في جلسته ثانية متخذاً وضعاً مريحاً ، ثم أخذ يعبت بلحية أبيه . في البداية مسدها بعناية ، ثم فرق شعرها وأخذ يمشطه ليجعله مثل السوالف .

ودمدم :

- الآن أصبحت تشبه إيفان ستيبانوفتش . أما الآن فتشبه . . بوابنا . بابا ،
لماذا يقف البوابون بجوار الأبواب ؟ لكي يمنعوا اللصوص من الدخول ؟

أحس وكيل النيابة بأنفاس سيريوجا على وجهه ، وكان خده يلمس
شعره بين الحين والحين ، فأحس في قلبه بدفء ونعومة ، كأنما لم تكن يده
فحسب بل وروحه كلها تستلقي على مخمل سترة سيريوجا . وصدق في
عيني الصبي الواسعتين السوداوين ، فخیل إليه أنه قد أطلت عليه من
الحدقتين الواسعتين أمه وزوجته وكل من أحبهم في يوم ما .

وقال في نفسه : «فلتحاول إذن أن تجلده . . هيا ابتكر عقابا لو
استطعت ! كلا ، أين نحن من المربين . قبلا كان الناس بسطاء ، يفكرون
أقل ، ولذلك كانوا يحسمون القضايا بجرأة . أما نحن فنفكر أكثر من
اللازم ، والمنطق قد أغرقنا تماما . . كلما كان الإنسان أكثر تطورا وتفكيراً
وغوصا في دقائق الأمور ، أصبح أقل جرأة وأكثر وسوسة ، وأشد وجلا
في التصدى للمسألة . وبالفعل ، لو أمعنا التفكير ، فأية شجاعة وثقة في
النفس ينبغي أن تكون لدى المرء لكي يقدم على تعليم الآخرين ، والحكم
عليهم ، وتأليف الكتب السمكية . . »

ودقت الساعة العاشرة .

فقال وكيل النيابة :

- حسنا يا بنى ، حان وقت النوم . ودّعنى وانصرف . فعبس سيريوجا
وقال :

- لا يا بابا . سأبقى قليلا . احك لى شيئا . احك لى حكاية !

- طيب ، لكن بعد الحكاية تذهب إلى الفراش فوراً .

كان من عادة يفجيني بتروفتش في الأمسيات الخالية أن يحكى

الحكايات لسيريوجا . ومثل معظم الأشخاص العاملين لم يكن يحفظ قصيدة شعر واحدة ، ولا يذكر حكاية واحدة ، ولهذا كان يلجأ إلى الارتجال فى كل مرة . وفى العادة كان يبدأ بالعبارة التقليدية : « كان يا ما كان ، فى سالف العصر والأوان » ، ثم يحشد كمًّا من الهراء البريء ولا يعرف أبدا عندما يبدأ كيف سيكون وسط الحكاية ونهايتها . كان يعتمد على الحظ والبديهة فى رسم الصور والأشخاص والظروف . أما الموضوع والموعظة فينبثقان تلقائيا ، دون علاقة بإرادة الراوى . وكان سيريوجا يهوى كثيرا هذه القصص المرتجلة ، ولاحظ وكيل النيابة أنه كلما جاء الموضوع بسيطا دون تعقيد ، كان تأثيره على الصبى أقوى .

وبدأ يحكى وقد رفع نظره إلى السقف :

- اسمع . . كان يا ما كان ، فى سالف العصر والأوان ، كان هناك ملك عجوز عجوز ، بلحية شبياء طويلة و . . وبشوارب هائلة . وكان يعيش فى قصر زجاجى يلمع ويتلألأ فى الشمس مثل قطعة كبيرة من الجليد النقى . أما القصر يا أختى فكان وسط حديقة ضخمة ، حيث كانت تنمو ماذا؟ . . أشجار البرتقال . . والكمثرى . . والكرز . . وتزهّر أزهار الأقحوان ، والورود ، والسوسن ، وتنشد الطيور الزاهية الألوان . . نعم . . وكانت تتدلى من الأشجار أجراس زجاجية صغيرة ، وعندما تهب الريح ، ترن بصوت رقيق ، يخلب الألباب . فالزجاج يصدر صوتا أرق وأنعم من المعدن . . حسنا ، وماذا كان هناك أيضا؟ كانت النافورات تتدفق فى الحديقة . . أتذكر النافورة التى رأيتها فى دار خالتك سونيا الريفية؟ مثلها بالضبط كانت النوافير فى حديقة الملك ، ولكنها أكبر بكثير ، وكانت تيارات الماء المتدفقة منها تصل إلى قمة أعلى شجرة حور . .

وفكر يفجيني بتروفتش قليلا ثم استطرد :

- وكان لدى الملك العجوز ابن وحيد ، هو وريث العرش والمملكة . كان صبيا صغيرا هكذا مثلك . وكان ولدا طيبا . لم يكن يتدلل أبدا ، وكان ينام

مبكرا، ولا يلمس شيئا على المكتب . . وعموما كان ولدا شاطرا . لم يكن يعيبه إلا شيء واحد : لقد كان يدخن . .

أصغى سيريوجا بتركيز وهو يحدق فى عينى أبيه بعينين لا تطرفان . ومضى وكيل النيابة يحكى وهو يفكر : « وماذا بعد؟ » وبعد أن لت وعجن كثيرا، كما يقال، أنهى الحكاية هكذا :

- ومن التدخين مرض ولى العهد بالسل ومات وهو فى العشرين من عمره . وأصبح الملك العجوز، المريض المهدم، بلا معين . ولم يعد هناك من يرعى شئون المملكة ويحمى القصر . فجاء الأعداء وقتلوا الملك العجوز، وهدموا القصر، ولم يعد فيه الآن كرز أو طيور أو أجراس . . هكذا يا أختى . .

بدأت هذه النهاية ليفجئنى بتروفتش نفسه مضحكة وساذجة، إلا أن الحكاية بمجملها تركت فى نفس سيريوجا أثرا قويا . وعاد الحزن وشيء أشبه بالرعب يلف عينيه . وظل حوالى دقيقة يحدق فى النافذة المظلمة وهو مستغرق فى التفكير، ثم انتفض وقال بصوت متهدج :

- لن أدخن مرة ثانية . .

وبعد أن ودع أباه وانصرف لينام، أخذ الأب يذرع الغرفة بهدوء من ركن لركن وهو يبتسم .

وفكر فى نفسه : « قد يقال إن ما أثر عليه هو الجمال والشكل الفنى . فليكن، ولكن هذا ليس بشيء مطمئن . إنه مع ذلك ليس وسيلة حقيقية . . لماذا ينبغى تقديم الموعظة والحقيقة ليس بصورتها المجردة، النيئة، بل بالخلطات، وبقشرة سكرية مذهبة كحبات الدواء؟ ليس هذا طبيعيا . . إنه خداع، تزوير . . تحايل . . »

وتذكر القضاة المحلفين، الذى لا بد أن تُسمعهم « خطبة عصماء »،

وعامة الناس الذين لا يستوعبون التاريخ إلا من خلال الملاحم والسير والروايات التاريخية، وتذكر نفسه، هو الذى استقى خبرة الحياة لا من المواعظ والقوانين، بل من الحكايات والروايات والأشعار . .

«ينبغى أن يكون الدواء حلوا، والحقيقة جميلة . . وهذه النزوة قد أباحها الإنسان لنفسه منذ عهد آدم . . وعموما . . ربما كان كل ذلك طبيعيا وهكذا ينبغى للأمور أن تكون . . وهل تخلو الطبيعة من الخداع المفيد والأوهام . .» .

وشرع يعمل، بينما ظلت الأفكار المنزلية الكسولة تهوم فى رأسه طويلا . ولم تعد أنغام العزف تسمع ولكن ساكن الطابق الثانى ظل يخطو من ركن لركن . .